إبراهيم عليه السلام وكلمات الابتلاء

د. أبوبكر القاضي

المجلس العاشر: التوحيد ونبذ عبادة الشيطان

abobakrelkady AboBakr Elkady
www.abobakrelkady.net KonnashatElkady

{يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا}[مريم:٤٣-٤٤].

الدعوة إلى الله (عز وجل) هي الدعوة إلى توحيد الله (تبارك وتعالى) ونبذ عبادة الشيطان.

قال تعالى...

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}[يس:٦٠-٦٢].

إبراهيم (عليه السلام) لا يزال يعدد الحجج والبراهين لأبيه آزر، يبين له شناعة الشرك، يبين له كيف أنه ضارب في التيه، في الضلال، في الحيرة، في عبادة الشياطين.

{قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[الأنعام:٧١].

وإبراهيم (عليه السلام) بعدما ذكر أن الإله ينبغي أن يسمع ويبصر.

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا}[مريم:٤٢].

بيّن أن الاتباع يكون على مقتضى الدليل والحجة.

{يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}[مريم:٤٣].

هذه هي القضية، هداية الخلق، أن يُغْفَر لهم، أن يُستنقَذوا من النار، ومن عذاب الله (عز وجل).

ثم قال:

{يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا}[مريم:٤٤].

كيف يعبد الإنسان الشيطان؟

إذا كفر بالله (عز وجل)، يطيع الشيطان في معصية الله، يطيع الشيطان في الكفر بالله، طاعته في المعصية معصية، طاعة الشيطان في المعصية معصية، وطاعته في الكفر كفر.

لا تعبد الشيطان، الشيطان لا يستحق أن يُعبد، الشيطان قضيته ليست أن تقول أنا أعبد الشيطان، الشيطان عنده إنكار للذات، لا يهم عنده أن تقول عبد الشيطان، القضية كلها أن تكفر بالله (عز وجل)، هذه هي قضيته كلها.

{ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[الحجر:٣٩-٤٠].

ولذلك قال تعالى...

{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}[الحجر:٤٢].

السلطان الذي للشيطان يكون على من اتبعه، على من صدقه، على من اتبعه في الإعراض عن الله (تبارك وتعالى)، في عدم شكر نعمة الله (عز وجل).

ولذلك قال تعالى...

{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}[سبأ:٢٠].

ما هو ظن إبليس؟

ظن إبليس في البشرية ولا تجد أكثرهم شاكرين، في كثير من الناس من البشرية أصبحوا عند حسن ظن إبليس.

كيف؟

"وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"، أكثرهم لم يشكروا، أكثرهم لم يعترفوا بالنعمة باطنًا، لم يتحدثوا بها ظاهرًا، لم يستخدموا النعمة في خدمة المنعم.

ولذلك نحن عندنا الشيطان هو رأس الطواغيت، الذي يدعو لعبادة نفسه ويدعو لعبادة غيره.

القضية عنده ليست أنه يدعو لعبادة نفسه، القضية عنده كلها أن يُكفَر بالله، إما بعبادته أو بعبادة غيره.

وثن، صنم، ولي، نبي.

المهم ألا يُعبد الله، المهم ألا يُوحد بالله (عز وجل).

لذلك الإعراض عن عبادة الشيطان، نبذ عبادة الشيطان.

كل من عبد وثنًا وصنمًا وصليبًا، كل من عبد زرادشت وبوذا وكونفوشيوس، كل من ألحد وأنكر وجود الله (عز وجل) هو يعبد الشيطان.

لقد أطاع الشيطان في الكفر، وللعلم هذه هي قضية الشيطان.

تقول لي حتى مع المسلم؟ حتى مع المؤمن؟ نعم، يجعل لك خطوات.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [البقرة:٢٠٨].

الشيطان لن يأتي للمسلم والمؤمن ويقول له أكفر، لا خطوات، يبدأ معه بالتوسع، بالانشغال بالمفضول عن الفاضل في الطاعات، الألويات، يجعله لا يعرف ما عبادة الوقت، ثم بعد ذلك التوسع في المباحات، يجعله يتوسع جدًا جدًا في المباحات حتى يقترب من الحرام، ثم بعد ذلك الوقوع في الصغائر، يقع في الحرام، ثم بعد ذلك الوقوع في الكبائر، ثم بعد ذلك الوقوع في البدع، ثم بعد ذلك الوقوع في الشرك.

يأخذه خطوة خطوة، ليس وراءه شيء غيرنا، ليس وراءه غيرك.

قيل للحسن البصري أينام الشيطان؟!

قال: "لو نام لاسترحنا"، ليل نهار ليس وراءه سوى الكيد والمكر الكُبّار، الإغواء.

ولذلك قال (صلي الله عليه وسلم): "إنَّ إبليسَ يضعُ عرْشَه على الماء، ثم يَبْعَث سَراياه، فأدْناهم منه منزِلةً أعظمُهم فتنةً، يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئًا. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فَرَّقتُ بينه وبين امرأتِه، قال: فيُدْنِيه منه ويقول: نعم أنت".

إن إبليس يضع عرشه على الماء، ويبعث سراياه من الشياطين الصغار في العباد حتى يغوي فلان ويفرق بين فلان وبين زوجه، وحتى يجعل فلان، لم أتركه حتى يكفر، لم أتركه حتى زنى، لم اتركه حتى فرقت بينه وبين زوجه، وهذا الذي يلبسه التاج، الذي يفرق بين الإنسان وبين زوجه، هذا الذي يلبسه إبليس التاج ويجعله يقعد على كرسيه ويقول: "أنت أنت، نِعم أنت".

لماذا؟

لأن هدم الأسرة من أهم أسباب وجود الفحشاء ووجود الزنا ووجود كل أنواع الفواحش في المجتمع، هدم الأسرة، ضياع التربية، تشويه الأجيال.

فلذلك هذا الأمر يهتم جدًا به إبليس لأن له آثار مستقبلية.

إن هذا الطلاق في الحقيقة فعل مباح، يعني ستقول مكروه على أقصى تقدير ولكنه مما أحله الله (تبارك وتعالى)،

ومع ذلك يترتب عليه من التشوهات النفسية والتربوية، وما يترتب عليه من التصدعات الأسرية ما يؤدي إلى تشوهات مجتمعية، ما يؤدي إلى ظهور الفواحش، تشرد الأطفال، ضياعهم، ضياع قيمهم، عقائدهم إلى غير ذلك.

المقصود أن الشيطان ليس وراءه غيرك، قضيته كلها أن تعبد غير الله (تبارك وتعالى).

ولو كنت مسلم مؤمن أن تعصي الله (عز وجل)، أن تغوي، أن تشرد، أن تبتعد، أن يستهويك الشيطان في الأرض حيران.

حيرة في التصورات والعقائد، حيرة في القرارات، حيرة في السلوكيات، يجعلك تتخبط بين الشبهات والشهوات، "ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ".

{ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا} [مريم:٤٤].

أنت لا تعبد الصنم، لا تعبد هذا الإله، لا تعبد النجوم، لا تعبد الكواكب، أنت تعبد الشيطان.

الشيطان عصيًا للرحمن (تبارك وتعالى)، لقد غضب عليه الرحمن، لقد كان الشيطان في وقت من الأوقات يعبد الله (عز وجل) مع الملائكة، لم يبق موطن في الأرض إلا سجد فيه الشيطان لله (عز وجل)، حتى رفعه الله إلى السماء يعبد الله مع الملائكة، ومع ذلك كان في قلبه مرض، كان في قلبه كِبر، كان في قلبه حسد.

حتى ابتلاه الله بأمره أن يسجد لآدم عليه السلام، وكان السجود لآدم عليه السلام ليس عبادة لآدم، وإنما كان ائتمارًا بأمر الله، عبادةً لله.

فكان آدم (عليه السلام) كالقبلة التي يسجدون في الحقيقة لله ولكن في اتجاهها، ومع ذلك ظهر كِبره وظهر حسده حتى أبى واستكبر وكان من الكافرين.

وقال أأسجد لمن خلقت طينا؟!

واتهم الرب (عز وجل) في حكمته، وقال "أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ".

وعصى ربه (عز وجل) وفسق عن أمر ربه، ولكن فسقه وعصيانه لم يكن معصيةً بل كان كفرًا وخروجًا عن طاعة الله (تبارك وتعالى)، حتى غضب الله عليه، وأبلس من روح الله، وأبلس من رحمة الله، أي يئس من رحمة الله، وطُرد ولُعن وجُعل على أقبح صورة.

كل هذا لماذا؟

لأنه عصى الرحمن، لأنه ابتعد عن الرحمن، لأنه أبى واستكبر وكان من الكافرين، لأنه استبطن في قلبه الكِبر والحسد والاعتراض على أمر الله والغرور ورؤية النفس.

لذلك إياك أن تكون من أتباع الشيطان، إياك أن تكون مثل الشيطان، كن طائعًا لله منقادًا لأمر الله (عز وجل).

ابتعد عن الشيطان وعن عبادته وعن خطواته حتى، فيما هو في أصغر الأشياء، حتى لا ينقلب معك إلى أكبر الأشياء.

فالمعاصي بريد الكفر وهي خطوات، يخطو بك إلى الكفر، ولذلك ابتعد، واستعذ بالله (عز وجل)، واستجر بالله، ولُذ بالله (تبارك وتعالى).

ولا تتبع خطوات الشيطان، وحذو القذة بالقذة اتبع أمر الله وأمر رسوله (صلي الله عليه وسلم).

{يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا} [مريم:٤٤].